يعقوب صروف

و « الاشياء الباقية » في الحياة

الذكرى الثانية عشرة لوفاته [1]

لست ادري كيف اوجّه شكر الى محطة الاذاعة الفلسطينية ، لعنايتها باحياء ذكر العاملين في نهضة الشرق الفكرية والاجتماعية . فالكلام عاجز عن اداء هذه المهمة على اوفى وجه ، وذلك لأن عمل المحطة في الواقع عمل كبير الشأن عظيم الأثر باذن الله

نحن نجتاز فترة من حياة الشعوب ، انقلبت فيها الاوضاع ، وطغا على وجه الغبر كل عابر من الصفات والقيم الانسانية ، فحجب كل راسخ مقيم من السجايا والمناقب . وهذا ولا ريب متأثر بهذه الحضارة الآلية التي تبغي السرعة للسرعة ، أو هي تبغي السرعة لتحقيق غرض آخر في الحياة هو تخفيف عبء العمل وتوسيع نطاق الفراغ في سبيل الثقافة والرياضة ، ولكنهُ ، غرض على نبله ، لم تألفه الناس ، ولا تعودتهُ الاخلاق الاجتماعية والنظم الصناعية ، فسُخّرنا بالوسيلة ، وأهملنا الغرض . وليس ثمة ريب ، في ان عناية الناس الآن ، بالدائم الاصيل من النوازع العالية والاخلاق النبيلة والقيم الاساسية في حياة الافراد والاجتماع ، اقل من عنايتهم بكل ما يبهر الطرف ويخطف البصر ويؤتي ثمراً عاجلاً . ولا تكون العودة الى النهج القويم ، في اصلاح الحياة وتسويتها ، نهج العناية بما ينفع الناس ، نهج التأمل في حقائق الحياة لاستخراج اصولها الصحيحة السليمة ، الا بالعودة الى عظماء الرجال ، ودراسة حياتهم ، واستكشاف فضائلهم ومناقبهم واذاعتها . فليس من البث ، ان تمر السنون وتكر القرون ، وأسماؤهم كالنجوم تتألق في صفحات تاريخ الفكر والاجتماع ، تضيء الطريق الوعر للسالكين . « أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض »

والواقع ان الحياة عمادها صدق الصالحين وقدوتهم ، وحكمة الملهمين وابداعهم ، واقدام الرواد وفناء اشخاصهم الفانية في سبيل الخير العام . هم ينتشلونها من الادران . ويخلقون من وقع

---

(١) حديث لرئيس تحرير المنتطف ألقاه من محطة الاذاعة الفلسطينية في مساء ٧ يوليو ١٩٣٩ على ذكرى انقضاء اثنتي عشرة سنة على وفاة الدكتور يعقوب صروف

عبئها على الكواهل . بل ان الحياة لا تعذب ، وقد لا تحتمل الاَّ في صحبهم او في كنفهم . ومن محاسن الحضارة الحديثة ، انها تتيح لك صحبة الانبياء والفلاسفة والشعراء والعلماء والرواد ، في تراجمهم ومؤلفاتهم ، وفي ما يكتب ويذاع عنهم ، ومن هنا كان فضل محطة الاذاعة الفلسطينية في عنايتها باحياء ذكر العاملين في نهضة الشرق . ومن هنا كان شكرها شكراً واجباً من الامور التي يعجز عنها الكلام

وقد اتاحت لي الحياة ان اصحب واعيش في كنف احد هؤلاء الرجال ، وما فتئت روحهُ تطالعني كلَّ يوم من صورته النضرة وسبعين مجلداً من المقتطف — صدرت في عهده — مصطفة أمامي . وقد تردد كثيراً قبل تلبية طلب المحطة في اذاعة حديث عنهُ لما بين الاثنين من صلة القربى ، ولكن الرجل مضى الى لقاء ربهِ من اثنتي عشرة سنة ، فصار الوجه طاهر الذيل جزيل النفع ، فهو في غنى عمَّا نقولهُ فيهِ ، ولكننا لسنا في غنىً عمَّا في حياته الحافلة من العبر . فانا عند ما اروي في الدقائق التالية نواحي من حياته ، اجرِّد نفسي من صلة الاسم والقرابة — على فخري بها — واقف موقف واحد من ابناء الامم العربية اللسان تجاه هذا الرجل الذي كان ركناً اصيلاً من اركان النهضة الفكرية والاجتماعية فيها

من مزايا الدكتور يعقوب صروف ، أنهُ كان رجلاً جمع بين الذهن المتوقد والخلق النبيل ، أي العلم والفضيلة ، فكانت حياتهُ حافلة بالنفع

ولو نشأ صاحب هذا الذهن في بيئة تأصلت فيها تقاليد العلم ووطئت مسالكهُ ، لكان على الغالب من العلماء المبدعين الذين تنسب اليهم النظريات والمذاهب العلمية والفلسفية . ولكنهُ نشأ في بيئة ، كانت قد انقطعت صلتها بسير العلوم منذ القرن الثالث عشر على العموم ، وغلبت عليها أساليب من البحث تمتُّ الى الأدب واللغة والفقه بصلة قوية . نشأ مزوداً من اصول العلم الحديث بقدر وافر هيأهُ لأن يكون من رؤوس روَّاد عصر جديد . ونحن اذا طوينا الف سنة تقريباً فرجعنا الى مستهلّ نهضة العلوم في العصر العباسي ، رأينا ان نهضة النقل والترجمة كانت التوطئة التي لا بدَّ منها ، لتلقيح الفكر العربي الخصب ، بلقاح العلوم والفنون المنقولة عن اليونان والهند . واذا اتخذنا من جمهور المترجمين والنقلة في ذلك العهد ، من يمثلهم في شخص حنين بن اسحق ، فإنا لا نقع على ندٍّ لهُ الاَّ بعد الف سنة تقريباً في شخص يعقوب صروف

تلقى العلوم في الكلية السورية الانجيلية ببيروت — وهي المعروفة الآن بجامعة بيروت الاميركية — وكان الطبيعة أرادت ان تهيئهُ خاصة لعمله العظيم ، عمل تلقيح الذهن العربي في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، بلقاح العلوم الغربية الآخذة في التفتح والازدهار في ديار الغرب ، فأتاحت له ان يدرِّس مدى أربع عشرة سنة في جامعة بيروت الاميركية ، العلوم

الرياضية فالعلوم الطبيعية والكيميائية ، فآداب اللغة العربية وقواعدها . فاستكملت بذلك عدته ، من اطلاع واسع وفهم دقيق لأصول العلوم الطبية الحديثة وطرائق العلم التجريبي ، وقلم بليغ في سهولة وامتناع ، يرتد الى أبلغ الاساليب العربية في صدر الاسلام

فلما حدّثت نفسهُ ونفس زميله وشقيقه الروحي الدكتور فارس نمر باشا — مدّ الله عمره — باصدار مجلة المقتطف ، كان الصديقان قد اقتسما فيما بينهما أهم طائفة من العلوم الحديثة فاشتركا في العمل إحدى وخمسين سنة متواصلة ، ولا آصرة بينهما من قرابة او نسب ، وانما كانت آصرة التآخي الروحي والاخلاص للعلم وللخير العام ، أوثق وأمتن . وأنت تمضي في مطالعة سبعين مجلداً ضخماً من المقتطف منذ صدوره الى حين وفاة الدكتور صروف في ١٩٢٧ فلا تعرف من منشىء المقالات فيها ، حتى لقد غدت كلمة « أحدنا » تؤثر عنهما للدلالة على اتحادهما في هذا العمل الفكري العظيم ، مع ان الدكتور صروف عكف على انشاء المقتطف خاصًّا اياه بعنايته دون أخيه ، حالة ان الدكتور نمر اضطرَّ ان يقف معظم وقته على القطن ، ولا يزال عندما تسمح لهُ أعمالهُ بدقائق من الفراغ ، يتحسر على ان مقتضيات العمل ، حكمت عليه بأن ينصرف عن العمل العلمي الذي نشأ وترعرع فيه ، وملك عليه أسباب حبه

إن الخطة السامية التي وضعها منشئا المقتطف وجريا عليها وجرى عليها من أؤتمن عليها ، مدى ثلاثة وستين عاماً ، جعلتهُ الصلة الفكرية الموثقة بين الشرق الحديث والغرب الحديث . فنشر من المقتطف حتى وفاة الدكتور صروف في مثل هذا اليوم من اثنتي عشرة سنة اكثر من سبعين مجلداً في ما لا يقل عن خمسين الى ستين الف صفحة ضمت فصولاً مطولة وموجزة ونبذاً في شتى فروع المعرفة الانسانية . في ساحتها التقت أقلام الكتّاب والمفكرين بانهام القراء . وهذا الالتقاء ولد احتكاكاً والاحتكاك بث في العقول والنفوس نوراً وناراً

فمجلة المقتطف كانت باشراف الدكتور صروف وبما دوَّنهُ فيها من حقائق العلوم وتخيُّر الآراء والمذاهب العلمية والفلسفية والاجتماعية ، وما راجعهُ ووافق على نشره فيها من أقلام الكتاب ، تأخذ باليمين لتعطي باليسار ، تأخذ من العالم والمستنبط والفيلسوف لتعطي الزارع والتاجر والصانع والمدرس والطالب وربّة البيت . فكانت بذلك صلة بين عالم الابداع الفكري وعالم التطبيق العملي . كانت مرتبة متوسطة بين مباحث العلماء الفنية الدقيقة ، ومدارك الجمهور الذي يطلب الحقائق واضحة جلية ، تقبلها العقول وتسيغها الافهام . والعلم لا يرتقي ولا ينال قسطهُ من الذيوع والتأييد ، ولا تجنى الفوائد التي يجب ان تجنى منهُ الاَّ اذا اتصلت نتائج المباحث العلمية بمقتضيات العمران وتغلغلت في كل مصدر من مصادر حياة الفرد والمجتمع . لذلك كان بسط الحقائق العلمية ونشرها لازمين ككشفها وتحقيقها ، وهذا البسط والنشر جانب من المهمة العظيمة التي أخذها منشئا

المقتطف على هاتفهما عندما عزما في ذلك اليوم التاريخي في بيروت ان ينشئا «مجلة علمية صناعية». ولا يسعني الاّ الظن بأنهُ اذا جاء المؤرخ في المستقبل ، يحاول ان يكتب تاريخ النهضة الشرقية الحديثة على قاعدتين من الانصاف والتحقيق ، فانهُ لا يستطيع ان يغفل ذكر المقتطف وذكر الدكتور صروف الذي اقترن به حتى أصبحا متلازمين . ذلك بأن النهضة في أمةٍ ما تبدأ اولاً في صدور النخبة من ابنائها وعقولهم . واكثر هذه النخبة من ابناء الشرق العربي من اواخر القرن الماضي الى اواخر الربع الاول من هذا القرن ، يشهدون بأن المقتطف كان « معلمهم » ومن هنا أطلقوا عليه « المعلم الثاني » باعتبار ارسطوطاليس « المعلم الاول »

هذا العمل العظيم الذي لا يتسع الوقت الاّ لوصفهِ بإيجاز ، ما كان في الاستطاعة لولا تلك الفضائل الاساسية في خلق الرجل الذي وقف حياتهُ عليه ، حبٌّ راسخ للعلم وللخير العام ، وشارة لا تسترخي ، وتحقيق وتدقيق لا يحرفهما التسرع في المعالجة . وهذه مناقب تتصل بخلق الرجل بعد ان لمحنا ناحية من ذهنه

والعظمة في الرجال ينظر اليها من ناحيتين ، من ناحية النفع الذي تصيبهُ الامة التي ينتمون اليها وسائر الامم من بعد . ومن ناحية السمو والنبل في حياتهم الخاصة وعلاقتهم بالناس

أما الناحية الاولى في حياة الدكتور صروف ، فتمثلة في ما أصابهُ « المقتطف » والدكتور صروف نفسه ، من مكانة عند كبار الامم الغربية من ملوكها وأمرائها الى وزرائها وعلمائها وكتابها ، وعند فريق غير يسير من علماء الغرب ، وما أسداه من خدمة الى تحرير العقول وتثقيفها ببسط العلوم الحديثة والحثّ على الأخذ بها وبطرائقها . وحسبي ان أشير هنا الى عبارة وردت في خطبة توفيق رفعت باشا رئيس لجنة عيد المقتطف الذهبي الذي تمثل برعاية المغفور لهُ الملك فؤاد الاول قال:

«وأنهُ وان أتيح لبيروت ان كانت مهد طفولة المقتطف ومبزغ قرن شمسه، فان لمصر ان تفخر بأنها مهد إيناعهِ بإيقاعه ، ومرقاة اكتماله باكتماله، وما تصيرهُ في الشرق الى الحسنى ، الاّ ناجمة يؤبه لها ونادرة يلتفت اليها . وان مصر وهي المتعطشة الى استعادة مجدها العلمي الذاهب لا تزال جيدة التربة طيبة المنبت كريمة الجوهر . فكلما حيّاها صيّب او جادها غيث انتعشت وتألق جوهرها . فأصحاب المقتطف قد شمّروا عن ساعد الجدّ وجمعوا الى غزارة المادة مضاء العزيمة في إخصاب هذه التربة الجيدة... ان مصر الشاكرة دائماً من يعاونونها في شؤونها تناصرت على معاضدة المقتطف بنشره في دور العلم ومعاهد التعليم ... عمّره الله للعلم الى مئين السنين ونضّر الله وجه ذويه »

ولا يتسع المقام لاقتباس عبارات موجزة من أقوال سائر الخطباء والشعراء في عيد المقتطف او في حفلة تأبين الدكتور صروف . ولعلّ قول المغفور لهُ حافظ ابراهيم

إني قرأتك في الكهولة والصبا وملأت من غرر العقول وطابي
وقول شوقي : مشينا بنوريْ علمها وبيانها فلم نشر الاّ في شعاع شهاب
وعشنا بها جيلين قتّ عليهما منهم نشيء او إمام شباب

يعبّران عما في نفوس الوف من ابناء مصر وسوريا وفلسطين والعراق حيال المقتطف

واما الناحية الاخرى من حياة الدكتور صروف فهي الناحية الذاتية وقد كان في مناقبه العقلية والخلقية على ما وصفهُ الامير شكيب ارسلان : « مما لا أجده الاّ في النادر الأندر من البشر . ولاشك انهُ اذا كان أعلى أفقٍ من الناس متصلاً بأقرب أفق من الملائكة فيكون فقيدنا مليب الذكر في الفوج الاول من الآدميين الفارطين الى ذلك الأفق العالي »

فقد أفنى الدكتور صروف اطيانا كان يراها كلها في المقام الثاني بعد المقتطف وما كان ينفق عليها من العناية والوقت عشر معشار ما ينفق منهما على هذه المجلة التي كان يحبها كولده ولا يهنأ لهُ عيش الاّ اذا تم عمله فيها على الوجه الاكمل وأتيح لهُ المحافظة على رسالتها العلمية الرفيعة

وكان مثلاً حيًّا للتسامح المسيحي وله في ذلك نوادر يصح ان تجري مجرى الامثال منها ان خصماً صحفيًّا مشهوراً في اشتداد حملته على المقتطم جاء — وقد نفد الورق من مخزنه — يطلب ملفات ورق لطبع جريدته من مدير المقتطم. فلما سئل الدكتور صروف في ذلك لم يزد على قوله « ان جاع عدوك فاطعمهُ وان عطش فاسقه ....»

وكان مستقيم كالرمح لا يحيد عن الصدق في القول والعمل قيد شعره. جاءه يوماً رجل عزيز عندهُ وطلب منهُ وساطة عند وزير على أن لا يعلم الوزير ان هذا الرجل في القاهرة . فقال الدكتور صروف « لا استطيع ان اقول غير الصدق . سافر من القاهرة وأنا ابلغك مايتمّ »

وكان وديع النفس لا يأنف من مقابلة اصغر الطلبة ومحادثتهم وارشادهم وتقبل آرائهم اذا كان فيها صواب، وعندي عشرات من الامثلة على احداث اتوه متهيبين فخرجوا من مكتبه وكأنهم خارجون من حضرة والد حنون . وقد حدثني أحد الكتاب المشهورين بأنهُ رأى، وهو شابٌّ، مأخذاً على بعض ما نشر في المقتطف فذهب الى مقابلة الدكتور صروف وهو يقدم رجلاً ويؤخر اخرى فأحسن وفادتهُ وقبل نقدهُ ونشرهُ فكان ذلك الحافز الاول الذي دفع صاحبنا الى المضي في الكتابة . وكان ابيَّ النفس لا يرضى عن الاباء والكرامة بديلاً. جاءهُ مدير اعماله يوماً وقال لهُ اذا حدثت فلان في القضية الفلانية فقد نوفر مبلغاً لا يستهان به . فقال اختشي ان لا اصيب عندهُ ما يرضيني . كلم الخسارة المقدّرة .... لتكن من حساب مما خسرنا او كسبنا

وكان وطنيًّا صادق العقيدة منزهاً عن الاهواء ، اشترك في شبابه في الحمية الثورية الاولى في لبنان ، على ما حدثني بذلك الدكتور غرو ، وكان من اشدّ اعضائها حماسة ، وشارك

مصر في نهضتها فكان لا يقول إلاّ ما يراهُ صدقاً وخيراً ، فكان صديقاً مقرباً من جميع أقطاب فرقها السياسية بلا استثناء

وكان يؤمن بالحياة الأخرى إيماناً فلسفياً وكثيراً ما كانت الفلسفة مشكاة وسبيلاً الى كشف الحقائق . ولذلك كان الدكتور صروف يحاول ويتمنى أن يتاح لهُ اثبات الحياة الأخرى عن طريق العلم

هذا بعض ما أتيح ذكره في هذا الحديث . وبقيني انهُ عاش خمساً وسبعين سنة لم يأت اثماً وهو يعلم انهُ أثم ، ولم يضرّ أحداً وهو يعلم انهُ يضرّ ، بذل حياتهُ كلها للخير الخاص والخير العام . وان عناية محطة الاذاعة الفلسطينية باحياء ذكراهُ وذكرى غيره من العاملين لدليل على ان العلم والفضيلة اذا اجتمعا في رجل ، فالزمان لا يمسح على اسمه او سيّر حياته خيوط النسيان . وفي هذا عبرة لنا نحن أبناء هذا العصر الذي يكاد يكون مصروعاً بجنون السرعة والثمر المعجّل . ان طريق الخلاص انما هو في العود الى الفضائل الاساسية التي أثبت اختبار البشر خلال الوف السنين انها « الاشياء الباقية »

كلمات للدكتور صروف

فضائل الحرب والسلم

الفضائل التي يدعي أهل الحرب ان الحرب توجدها او تمكنها في النفوس كالشجاعة الوحشية والجرأة والاقدام وتحمل المتاعب والمصاعب والصبر على المكاره وعدم المبالاة بالخسارة مهما كبرت وعظمت — كل هذه وغيرها ليست أعظم من الفضائل التي يوجدها السلم . فالشجاعة الادبية لا تقل منزلة عن الشجاعة الوحشية والاقدام على الاعمال الكبيرة ، اوقع في النفس من الاقدام على خوض ميادين القتال لأن الانسان يكون مدفوعاً في الاول بعامل التعقل والتبصر وفي الثاني بسورة الزرق والطيش . وليس أحد يقول ان الجنون خير من العقل . ورواد الحضارة الذين يجتابون البلدان المظلمة لنشر لواء الحضارة ويعانون المشاق والاهوال في سبيل ذلك خير من الجنود الذين ينفقون اعمارهم في خوض ساحات الحرب وميادين القتال . والعالم الذي يحاول حل سر من اسرار الطبيعة او اكتشاف دواء لداء قتال قاضياً ليلهُ ونهارهُ في البحث والتنقيب والتجربة والاختبار صابراً على فشل امانيه مرة وحتية مساعيه اخرى لأرفع مقاماً وأعلى منزلة في عيون الناس من اي قائد كان . فذانك الاسكندر وارسطو ، ونابليون وباستور ووجه التفاضل بينهم لا يخفى على احد